

فتح إفريقية (١)

رسوم
إبراهيم سمرة

بقلم
عبد الحميد عبد المقصود



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والتوزيع

١٠ شارع تامل سنتر بالقاهرة - القاهرة ١١٥١٢٠٢

تَخْتَلِفُ الْفُتُوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ لِقَارَةِ أَفْرِيقِيَا ، عَنْ آيَةِ فُتُوحَاتٍ قَامَ
بِهَا الْقَوَادُ الْمُسْلِمُونَ ، فِي أَنْحَاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الْعَالَمِ . . . فَهَذِهِ الْفُتُوحَاتُ
حَدَّثَتْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، وَفِي فتراتٍ زَمَنِيَّةٍ مُتَبَاعِدَةٍ حِينًا ، مُتَقَارِبَةٍ أحيانًا ،
كَمَا أَنَّهَا تَمَّتْ عَلَى يَدِ أَكْثَرِ مِنْ قَائِدٍ إِسْلَامِيٍّ عَظِيمٍ .

وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ يَتِمُّ فِيهَا فَتْحُ هَذِهِ الْبِلَادِ ، كَانَ يَعْقُبُهَا فَتَنٌ وَثُورَاتٌ مِنَ
الْبَرْبَرِ - سُكَّانِ هَذِهِ الْبِلَادِ - بِمُجَرَّدِ انْسِحَابِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا ،
وَكَانَ سُكَّانُ هَذِهِ الْبِلَادِ يَعُودُونَ إِلَى وَثَنِيَّتِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى ، مِمَّا يَضْطُرُّ الْقَوَادُ
الْمُسْلِمِينَ إِلَى إِعَادَةِ الْفَتْحِ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ أَخِيرًا
لِلْمُسْلِمِينَ وَتَمَكَّنَ الْإِسْلَامُ مِنْ قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الْبَرْبَرِ .





وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ أَوَّلَ الْفَاتِحِينَ لِبِلَادِ الْقَارَةِ الْأَفْرِيقِيَّةِ ، وَكَانَ قَائِدًا
إِسْلَامِيًّا يَتَّصِفُ بِالْخَبِيرَةِ وَالِدَهَاءِ ، فِي الشُّؤْنِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ ،
بِالإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِ حَادِقًا بِالْفِطْرَةِ وَالتَّجَرِبَةِ .

فَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ فَتْحَ مِصْرَ ، وَاسْتَتَبَّ لَهُ الْأَمْرُ فِيهَا ، فَنَشَرَ الْإِسْلَامَ وَرَفَعَ
رَايَتَهُ عَالِيَةً خَفَاقَةً فَوْقَ رُبُوعِهَا ، بَرَزَتْ شَخْصِيَّتُهُ الْقَوِيَّةُ ، وَصَارَ مَوْضِعَ ثِقَةٍ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَطَلَّعُ إِلَى فَتْحِ بَقِيَّةِ بُلْدَانِ الْقَارَةِ
الْأَفْرِيقِيَّةِ ، وَنَشَرَ الْإِسْلَامَ فِيهَا .





سَارَ عَمْرُو فِي جَيْشٍ مِنَ الْفَرَسَانِ (رَاكِبِي الْخَيْلِ) حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِقْلِيمِ
«بَرْقَةَ» وَفَتَحَهَا ، وَتَمَّ الصُّلْحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهَا عَلَى جَزِيَّةٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَيْهِ .
ثُمَّ سَارَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِقْلِيمِ «طَرَابُلُسَ» عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ ،
وَنَزَلَ عَلَى قُبَّةٍ مُرْتَفِعَةٍ تُشْرِفُ عَلَى شَرْقِ الْإِقْلِيمِ ، وَظَلَّ يُحَاصِرُ الْمِنْطَقَةَ
لِمُدَّةٍ شَهْرٍ ، دُونَ أَنْ تَسْتَسْلِمَ لَهُ .



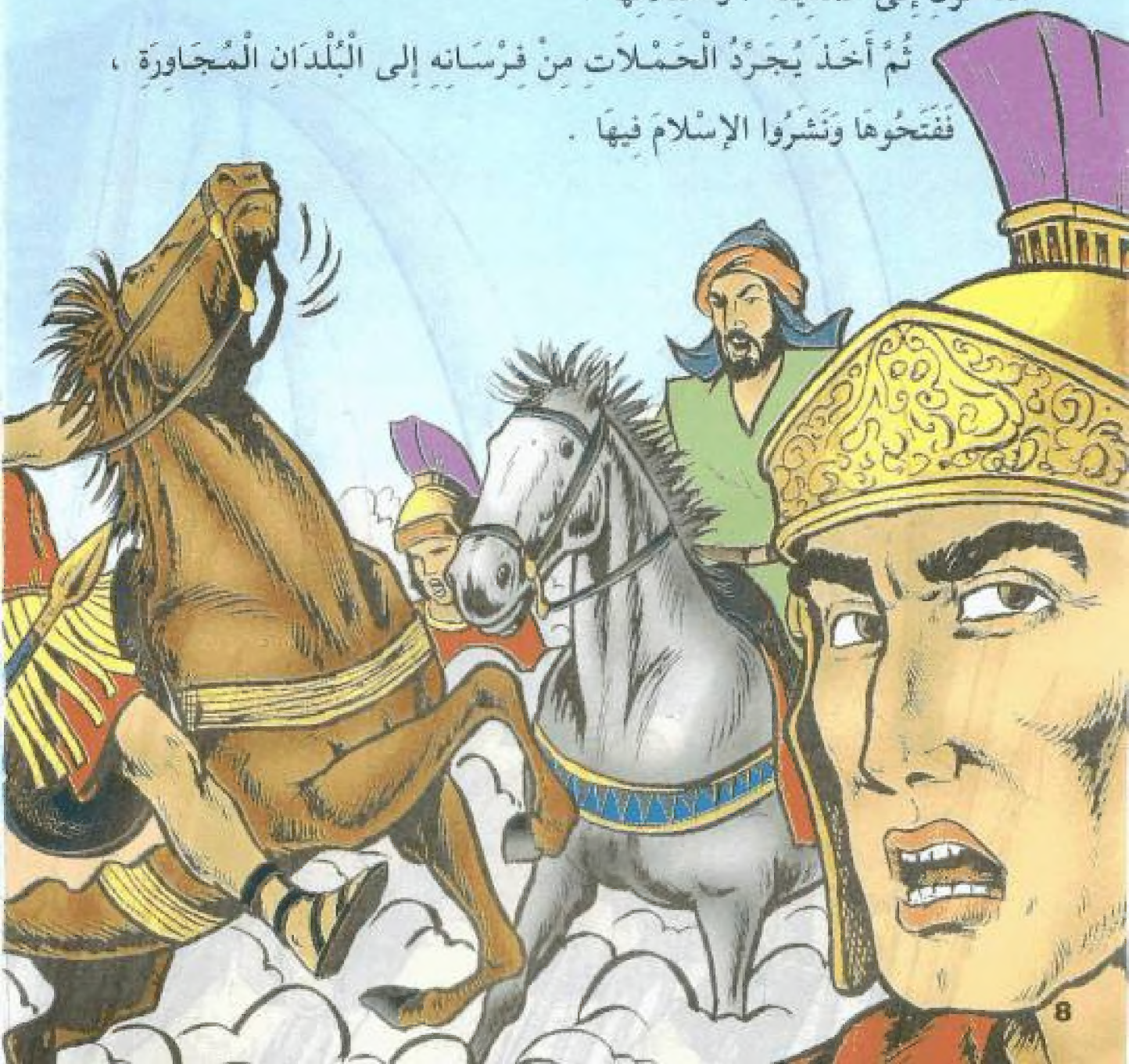
وَذَاتَ يَوْمٍ خَرَجَ جَمَاعَةٌ مِنْ عَسْكَرِ عُمُرٍ لِلصَّيْدِ ، فَلَمَّا
ابْتَعَدُوا عَنِ الْمُعَسْكَرِ ، وَأَصَابَهُمُ الْحَرُّ وَالتَّعَبُ الشَّدِيدُ ،
جَلَسُوا يَسْتَرِيحُونَ بِالْقُرْبِ مِنْ سُورِ الْمَدِينَةِ الَّتِي يَقَعُ عَلَى
شَاطِئِ الْبَحْرِ مُبَاشَرَةً فَانْكَشَفُوا سُفْنَ الرُّومِ الرَّاسِيَةَ بِالْقُرْبِ مِنْ
الشَّاطِئِ ، وَقَدْ غَاضَ عَنْهَا الْمَاءُ ، نَتِيجَةَ حَرَكَةِ جَذْرِ الْبَحْرِ .



وَفِي الْحَالِ دَخَلَ هَؤُلَاءِ الرُّجَالُ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، الَّذِينَ
كَانُوا يَسْتَرِيحُونَ مِنْ عَنَاءِ الْحَرِّ ، ثُمَّ وَصَلُوا إِلَى كَنِيسَةِ الْمَدِينَةِ ، فَصَعَدُوا
قُبَابَهَا ، وَأَخَذُوا يُكَبِّرُونَ .

فَزِعَ الرُّومُ فَرَعًا شَدِيدًا ، وَهَرَبُوا إِلَى سُفُنِهِمْ ، ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ جَيْشَ
الْمُسْلِمِينَ قَدْ دَخَلَ الْمَدِينَةَ ، وَبِهَذِهِ الْحِيلَةِ تَمَكَّنَ جَيْشُ عَمْرٍو مِنَ
الدَّخُولِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَاحْتِلَالِهَا .

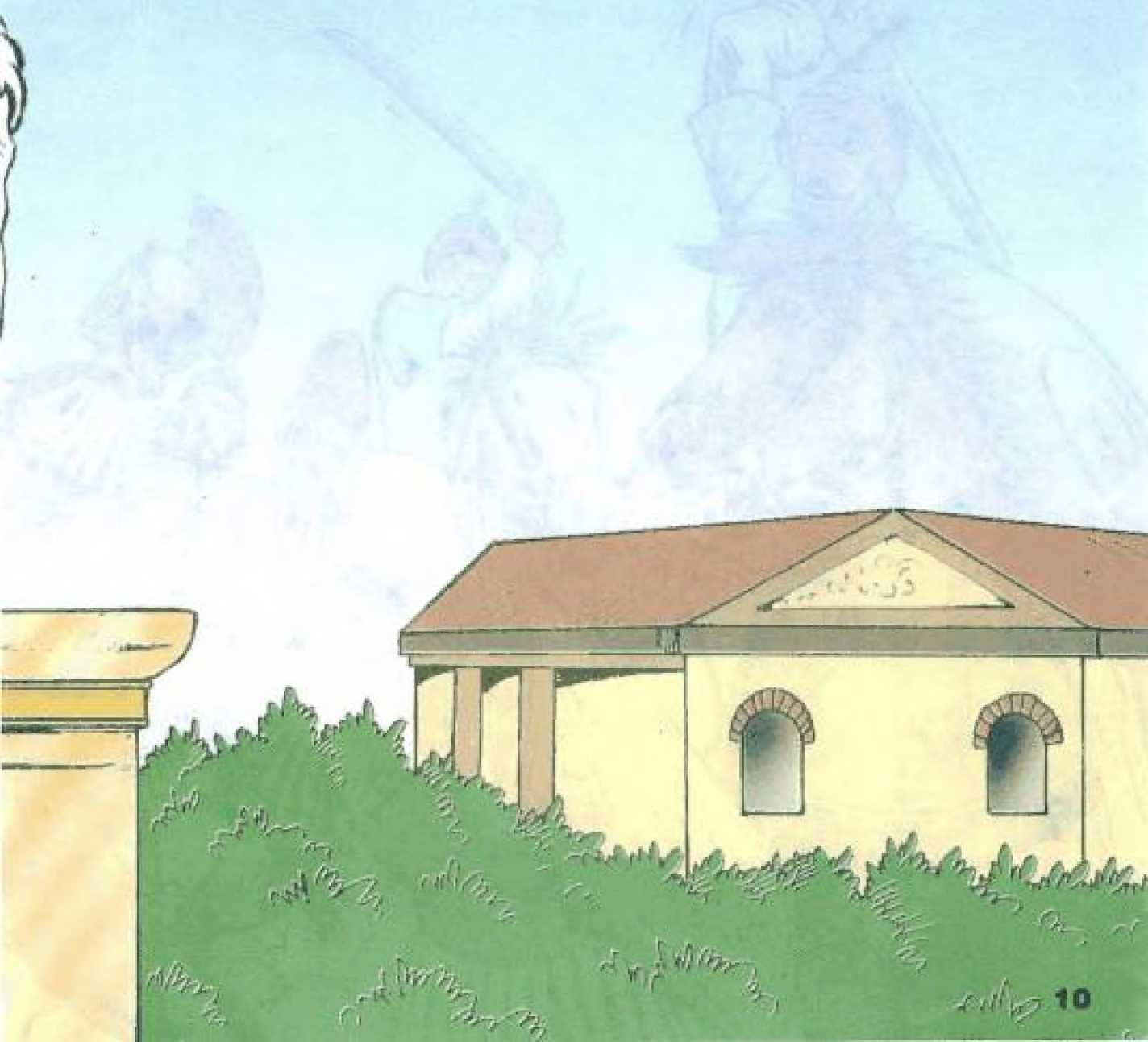
ثُمَّ أَخَذَ يُجَرِّدُ الْحَمَلَاتِ مِنْ فَرَسَانِهِ إِلَى الْبُلْدَانِ الْمُجَاوِرَةِ ،
فَفَتَحُوهَا وَنَشَرُوا الْإِسْلَامَ فِيهَا .



بَعْدَ ذَلِكَ كَتَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، يَسْتَأْذِنُهُ فِي
مَدَّ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيَّ إِلَى بَقِيَّةِ بُلْدَانِ الْقَارَةِ الْأَفْرِيقِيَّةِ ، فَنَهَاةَ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ .
فَمَا كَانَ مِنْ عَمْرٍو إِلَّا أَنَّهُ أَطَاعَ طَاعَةً كَامِلَةً ، وَرَجَعَ بِجَيْشِهِ إِلَى مِصْرَ ، بَعْدَ
أَن تَرَكَ عُقْبَةَ بْنَ نَافِعٍ فِي عَدَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هُنَاكَ .



فِي عَهْدِ وَلَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ، تَوَلَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السُّرْحِ ، حُكْمَ
مِصْرَ ، وَطَلَبَ مِنْ عُثْمَانَ مَدَدًا لِتَوْجِيهِ الْفَتْحِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةِ ، فَجَهَّزَ لَهُ عُثْمَانُ
جَيْشًا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَفِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ الصُّحَابَةِ . (عِدَّةُ الْجَيْشِ
٤ أَلْفَ فَارِسٍ وَ ٨٠٠ رَاجِلٍ) وَأَعَانَهُمْ عُثْمَانُ بِأَلْفٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمُ
مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ ، حَتَّى يَصِلُوا مِصْرَ ، فَيَتَوَلَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السُّرْحِ
قِيَادَتَهُمْ .





وَفِي مِصْرَ يَسْتَقْبِلُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ ، وَيَضُمُّ إِلَى الْجَيْشِ جَيْشًا
مِنْ عِنْدِهِ ، لِيُصْبِحَ الْعَدَدُ الْكُلِيُّ لِلْجَيْشِ عَشْرَةَ آلَافٍ مُقَاتِلٍ . ثُمَّ يَرْحَفُ
الْجَيْشُ بِحِذَاءِ شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى بَرْقَةِ ، وَهُنَاكَ
يُقَابِلُهُمْ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ فَيَمْنُ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ يَرْحَفُ الْجَمِيعُ نَحْوَ
طَرَابُلُسَ ، الَّتِي كَانَ الرُّومُ الْبِيزَنْطِيُّونَ قَدْ سَيَّطَرُوا عَلَيْهَا بَعْدَ عَوْدَةِ عَمْرٍو
ابْنِ الْعَاصِ إِلَى مِصْرَ وَتَحْدُثُ مَعَارِكُ حَامِيَّةٌ بَيْنَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَجَيْشِ الرُّومِ ، وَيَنْهَزُمُ الرُّومُ أَمَامَهُمْ ، وَبِذَلِكَ يَسْتَرِدُّ الْمُسْلِمُونَ طَرَابُلُسَ
ثَانِيَةً ، وَيُصْبِحُ إِقْلِيمُ لَبْنَا كُلُّهُ تَحْتَ سَيِّطَرَةِ الْمُسْلِمِينَ مَرَّةً أُخْرَى .



ثُمَّ يَتَقَدَّمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ بِالْجَيْشِ ، فَيَصْلُونَ إِلَى
حُدُودِ ثُوَيْسٍ (وَكَانَتْ ثُوَيْسٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ شَأْنَهَا شَأْنُ بِلْدَانِ
حُدُودِ الشَّامِ الْأَفْرِيقِيِّ) وَاقَعَةً تَحْتَ سَيْطَرَةِ الرُّومِ الْبِيزَنْطِيِّينَ .
وَكَانَ سُكَّانُ هَذِهِ الْمَنَاطِقِ كُلِّهِمْ مِنَ الْبَرْبَرِ ، وَكَانَ يَحْكُمُهُمْ
مَلِكٌ يُدْعَى جُرْجِيرٌ .



وَيَطْرُقُ الْمُسْلِمُونَ بِقِبْضَاتِهِمُ الْقُوَّةَ أَبْوَابَ الْمَلِكِ جُرْجِيرَ ، الَّذِي يُظَلُّ
عَلَيْهِمْ مِنْ مَمْلَكَتِهِ ، سَائِلًا عَنْ مَقْصِدِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، فَيَقُولُونَ لَهُ : إِنَّهُمْ
يَدْعُونَهُ إِلَى الدَّخُولِ فِي الدِّينِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ أَهْلُ مِصْرَ ، أَوْ دَفْعِ الْجَزْيَةِ
عَنْ يَدِ وَهْبٍ صَاحِرٍ .

وَلَكِنْ جُرْجِيرٌ يَعْتَبِرُهَا إِهَانَةً تَلْحَقُ بِهِ كَمَلَكٍ عَظِيمٍ يَحْكُمُ كُلَّ هَذِهِ
الْبِلَادِ ، الَّتِي تَمْتَدُّ إِلَى خُدُودِ الْمَحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ .





وَأخِيرًا كَانَتِ الْحَرْبُ . . حَشْدَ جُرْجِيرٍ جَيْشًا مِنَ الرُّومِ وَالْبَرْبَرِ قَوَامُهُ
 مِائَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا ، اتَّقَى بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْقَلِيلَ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ ،
 وَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا عِنْدَ مَدِينَةِ «سَيْطَلَةَ» مَقَرِّ الْمَلِكِ جُرْجِيرٍ .
 فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ يَنْقَطِعُ خَبَرُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ،
 فَيُرْسَلُ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، لِيَأْتُوهُ بِأَخْبَارِهِمْ .
 فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى مَعْسَكَرِ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَا التَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ ، مِمَّا جَعَلَ
 الْخَوْفَ وَالْفَزَعَ يَدْبَانِ فِي قُلُوبِ عَسَاكِرِ الْمَلِكِ جُرْجِيرٍ . وَلَمَّا سَأَلَ جُرْجِيرُ
 رِجَالَهُ عَنِ الْخَبَرِ ، أَخْبَرُوهُ بِأَنَّ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ جَاءَهُ مَدَدٌ عَظِيمٌ .
 فَأَوْهَنَ ذَلِكَ مِنْ عَزِيمَةِ جُرْجِيرٍ .





وَرَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَمِرُّ كُلَّ يَوْمٍ مِّنْذُ الصُّبْحِ
الْبَاكِرِ ، فَإِذَا أَذِنَ لِلظُّهْرِ عَادُوا إِلَى خِيَامِهِمْ ، فَلَا يَنْجَدُّ الْقِتَالُ إِلَّا فِي
صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي .

وَذَاتَ يَوْمٍ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يُقَاتِلُ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّ يَرِ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السُّرْحِ ، فَلَمَّا سَأَلَ عَنْ سَبَبِ اخْتِفَائِهِ ، عَرَفَ أَنَّ جُرْجِيرَ ،
قَدْ نَادَى بَيْنَ جُنُودِهِ بِأَنَّهُ مَن قَتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي السُّرْحِ نَالَ جَائِزَةً عَظِيمَةً ،
عِلَاقَةً عَلَى الشَّرَاجِ مِنْ ابْنَةِ جُرْجِيرَ ، لِذَلِكَ فَقَدْ أَثَرَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السُّرْحِ
أَنَّهُ يُدِيرُ الْمَعْرَكَةَ مِنْ خَلْفِ الصُّفُوفِ ، حَتَّى لَا يُؤَثِّرَ اسْتِشْهَادُهُ عَلَى
عَزِيمَةِ جُنُودِهِ ، وَثَبَاتِهِمْ ضِدَّ جَيْشِ جُرْجِيرَ .



وفى اليوم التالي أشار عبدُ الله بنُ الزبير على عبدِ الله بنِ أبي
السُّرْح ، بأن يُقابل الحيلةَ بِمثلها وأن يُنادى فى جنوده أيضًا بأن
من قتل جرَّجِير ، فله جائزةٌ ماليةٌ عظيمةٌ ، علاوةً على تولَّى
حكم البلاد التى كان يحكمُها جرَّجِير .
فلما فعل ذلك ، خاف جرَّجِير خوفًا شديدًا من جنودِ
المُسلمين برغم قلة عددهم .



وَلَمَّا طَالَ قِتَالُ الْمُسْلِمِينَ مَعَ جُنُودِ جُرْجِيرَ ، وَاسْتَمَرَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ
 سَجَالًا ، لَجَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى حِيلَةٍ جَدِيدَةٍ ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُعْجَلَ
 بِنَهَايَةِ الْحَرْبِ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ الْمُتَحَارِبَيْنِ ، فَقَدْ أَشَارَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي
 السَّرْحِ ، بِأَنْ يَتْرَكَ جَمَاعَةً مِنْ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي خِيَامِهِمْ ، يَسْتَرْيَحُونَ
 وَيَتَأَهَّبُونَ لِمُوَاصِلَةِ الْقِتَالِ ، بَعْدَ أَنْ يَسْتَنْفِدَ الْبَرَبَرُ قُوَّتَهُمْ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ
 مُنْذُ الصَّبَاحِ ، وَحَتَّى وَقْتُ الظُّهَيْرَةِ ، فَإِذَا أَرَادُوا فَضْ الْأَشْتَبَاكِ وَالْإِنْصِرَافِ
 لِلرَّاحَةِ فِي مَعْسَكَرِهِمْ لَمْ يُمْكِنَتْهُمْ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذَلِكَ .



وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي ، مَكَثَ فَرِيقٌ مِنْ شُجْعَانِ الْمُسْلِمِينَ
فِي خِيَامِهِمْ لِلرَّاحَةِ ، وَخَيُّوْلَهُمْ مُسَرَّجَةً ، اسْتِعْدَادًا
لِلانْطِلَاقِ فِي آيَةِ لَحْظَةٍ . فَلَمَّا أَذِنَ لِلظُّهْرِ ، وَأَرَادَ
جُنُودُ جُرْجِيرٍ أَنْ يَهْمُوا بِالْانْصِرَافِ لَمْ يُمْكِنْتَهُمْ هَؤُلَاءِ
الْأَبْطَالُ مِنْ ذَلِكَ ، وَانْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مَعَ مَنْ
مَعَهُ مِنْ فَرَسَانِ الْمُسْلِمِينَ وَحَمَلُوا عَلَى الْبَرَبْرِ حَمْلَةً
رَجُلٍ وَاحِدٍ .



لَمْ يَتِمَّكَنَ الْبَرَبَرُ مِنْ صَدِّ هُجُومِ الْمُسْلِمِينَ الْمُفَاجِئِ ، وَحَدَّثَ ارْتِبَاكَ
عَظِيمٌ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ وَالَّتِي اخْتَلَّ نِظَامُهَا وَقُتِلَ عَدَدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ الْبَرَبَرِ
وَقَوَّادِهِمْ ، بَيْنَمَا لَاذَ الْبَاقُونَ بِالْفِرَارِ ، أَوْ وَقَعُوا فِي الْأَسْرِ .
بَعْدَ ذَلِكَ نَازَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيعِ الْمَلِكُ جُرْجِيرَ ، وَبَعْدَ صَوَلَاتٍ
وَجَوَلَاتٍ تَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِ . وَأَخَذَتِ ابْنَةُ جُرْجِيرٍ أُسِيرَةً مَعَ أُسْرَى الْبَرَبَرِ .
وَهَكَذَا تَمَكَّنَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حِصَارِ الْمَدِينَةِ ، وَفَتْحِهَا . ثُمَّ أَخَذَ
الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ عَلَى نَشْرِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ قَبَائِلِ الْبَرَبَرِ ، وَيُعَلِّمُونَهُمْ أَصُولَ
الدِّينِ الْجَدِيدِ .
ثُمَّ ...





يُرْسِلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ جُيُوشَهُ فِي الْبِلَادِ الْمُجَاوِرَةِ ، وَيَتِمُّ فَتْحُ بَقِيَّةِ
حُدُودِ السَّاحِلِ الْأَفْرِيقِيِّ ، وَيُوَلِّي عَلَيْهِمْ حَاكِمًا مِنْهُمْ ، بَعْدَ أَنْ يَعْقِدَ مَعَهُمْ
صُلْحًا ، وَيَأْخُذَ الْجِزْيَةَ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِهِ مُنْتَصِرًا . ثُمَّ يَعُودُ إِلَى
مِصْرَ مَرَّةً أُخْرَى .

وَهَكَذَا تَشْرِقُ شَمْسُ الْإِسْلَامِ عَلَى بُقْعَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، هِيَ شِمَالُ
أَفْرِيقِيَا .

